

النظرية البنائية ودراسة العلاقات الدولية

سياق ظهور البنائية في العلاقات الدولية

يعتبر ظهور البنائية (Constructivism) في حقل العلاقات الدولية خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين ثورة نظرية كبرى، غالباً ما يشار إليها بـ "النقاش الكبير الرابع" (بعد نقاش المثالية/الواقعية، ونقاش التقليديين/السلوكيين، ونقاش النيو-واقعية/النيو-ليبرالية).

1. السياق الفكري السائد: النقاش بين النظريتين "النيو" (Neo-Neo Debate): في الثمانينيات، كان حقل العلاقات الدولية يهيمن عليه النيو-واقعية (كينيث والتز) و النيو-ليبرالية أو المؤسساتية (روبرت كيوهان، جوزيف ناي). **كان هذا النقاش يدور بالكامل داخل إطار الفلسفة الوضعية والعقلانية.**

- **المنطلقات المادية المشتركة:** العوامل الحاسمة هي القوة العسكرية، والثروة الاقتصادية، والمكانة الجيوستراتيجية.
- **المنهج الوضعي المشترك:** يمكن دراسة العالم الاجتماعي كالعالم الطبيعي، بالبحث عن قوانين سببية عامة.
- **الموضوع محل الخلاف:** حول طبيعة الفوضى الدولية (Anarchy). بالنسبة للنيو-واقعيين، تمنع أي تعاون دائم؛ أما النيو-ليبراليون فيعتقدون أن المؤسسات يمكن أن تخفف من آثارها.

هذا النقاش أهمل أسئلة جوهرية:

- كيف تتشكل مصالح الدول؟
- لماذا تُنظر إلى بعض التهديدات (كالقنبلة النووية) على أنها مرعبة بينما تُتجاهل أخرى (كالتغير المناخي)؟
- من أين تأتي المعايير (الأعراف) والهويات؟

2. الأصول الفكرية: مزج نظري من تخصصات متعددة: استقت المقاربة البنائية جذورها من خارج حقل العلاقات الدولية، من مجموعة من التقاليد السوسيولوجية والفلسفية:

- **علم الاجتماع والنظرية الاجتماعية:** أعمال أنتوني غيدنز حول "التشكيل البنوي" (فكرة أن البنى الاجتماعية والفاعل البشري يشكلان بعضهما بعضاً) تُعتبر مركزية. كما ظهر تأثير ماكس فيبر (أهمية الأفكار والمعاني) و بيير بورديو (الهابيتوس Habitus، المجال).
- **فلسفة اللغة والهرمينوطيقا:** "المنعطف اللغوي" (فيتغنشتاين، سيرل) يؤكد أن اللغة لا تصف العالم فقط، بل تُشكّله من خلال "أفعال الكلام". **المعايير هي توقعات مشتركة للسلوك الملانم.**
- **مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية:** أعمال روبرت كوكس (النظرية دائماً لشخص ما ولغاية ما) مهّدت الطريق عبر نقد الطابع اللاتاريخي والثابت للنظريات السائدة، **داعياً إلى تأريخ بُنى القوة.**
- **التفاعلية الرمزية في علم الاجتماع:** فكرة أن الفاعلين يتصرفون بناءً على المعنى الذي تحمله الأشياء لهم، وأن هذه المعاني تتبثق من التفاعلات الاجتماعية.

3. المحفز التاريخي: نهاية الحرب الباردة: شكّل الحدث التاريخي الرئيسي (1989-1991) صدمة إبستمولوجية للنظريات السائدة:

- فشل التوقعات: لم تستطع أي نظرية نيو-واقعية أو نيو-ليبرالية توقّع الانهيار السلمي المفاجئ للاتحاد السوفيتي. هذه النظريات، المركزة على توزيع القوة المادية، لم تستطع تفسير سبب قيام غورباتشوف بتغيير المعنى والمعايير المرتبطة بالسياسة الخارجية السوفيتية ("البيت الأوروبي المشترك"، "الانفراج").
- برهان قوة الأفكار: أظهرت نهاية الحرب الباردة أن التغيرات في التصورات والهويات (ماذا يعني أن تكون "أوروبياً؟") والمعايير (السيادة، حقوق الإنسان) يمكن أن يكون لها تأثير أعمق من حسابات القوة المادية البسيطة.

4. الشخصيات المؤسسة والنصوص المؤسسة:

- أ. نيكولاس أونوف (1989): بكتابه "عالم من صنعنا"، قدّم مصطلح "البنائية" رسمياً إلى العلاقات الدولية، مستعاراً إياه من علم النفس التنموي (بياجيه) ومطبّقاً إياه على دراسة القواعد التي تشكّل المجتمع الدولي.
- ب. فريدريك كراتوشفيل وجون دو روجي: أعمالهما حول دور المعايير والقواعد والمؤسسات (أبعد من مجرد وظيفتها النفعية) مهدّت الأرضية للنظرية البنائية في العلاقات الدولية.
- ج. ألكسندر وندت (1992): مقالته "الفوضى هي ما تصنعها الدول منها" في مجلة International Organization* تعتبر "البيان التأسيسي" للبنائية في العلاقات الدولية. حجّته مدمرة للنمو-واقعية: **الفوضى الدولية (غياب حكومة عالمية) ليس لها نتيجة حتمية واحدة. يمكن أن تؤدي إلى التنافس (كما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) "أو" إلى التعاون (كما بين الولايات المتحدة وكندا) اعتماداً على "الهويات" و"المصالح" التي تبنيها الدول تجاه بعضها البعض. الفوضى الدولية هي إذن "بنية اجتماعية" وليست قيداً مادياً ثابتاً.**
- د. بيتر كاتزنشتاين (1996): بكتابه الجماعي "ثقافة الأمن القومي"، برهن تجريبياً كيف تشكّل المعايير والهويات (وليس القوة فقط) سياسات الأمن القومي للدول، متخذاً حالي اليابان وألمانيا ما بعد الحرب نموذجاً.

5. موقع البنائية: "الطريق الوسط": قدم وندت البنائية على أنها "طريق وسط":

- أ. ضد العقلانية (النيو-واقعية/النيو-ليبرالية): رفض الأنطولوجيا المادية البحتة، وأكد على أهمية "الأفكار، والمعايير، والهويات".
- ب. ضد "ما بعد الحداثة"/التأملية الراديكالية (مثل ريتشارد أشلي): "قبل بالمناهج العلمية"، وإمكانية تراكم المعرفة حول العالم الاجتماعي. لم يشكّك في الدولة كفاعل مركزي، بل تساءل عن طبيعتها الاجتماعية.

باختصار: السياق في نقاط رئيسية: ظهرت البنائية نتيجة تقاطع:

- أ. "عدم رضا نظري" من طريق مسدود في النقاش بين النظريتين "النيو"، الضيق جداً والعاجز عن تفسير تشكّل المصالح.

- ب. "تخصيب وإثراء متعدد التخصصات"، خاصة من علم الاجتماع والفلسفة.
- ج. "صدمة تاريخية" (نهاية الحرب الباردة) دحضت توقعات النظريات السائدة، وكشفت عن القوة السببية للأفكار.
- د. "جيل من الباحثين" استطاع تركيب هذه العناصر في برنامج بحثي متماسك ومؤثر، مقدماً أدوات لدراسة التغيير والمعايير والبناء الاجتماعي للواقع الدولي.

لقد غير ظهور البنائية حقل العلاقات الدولية بشكل دائم بإعادة إدخال "البعد الاجتماعي، والتاريخي، والتشكيلي/التكويني-التفاعلي" للسياسة العالمية، دون رفض العلم الاجتماعي نفسه. وأصبحت أحد المنظورات الرئيسية الثلاثة، إلى جانب الواقعية والليبرالية.

الأفكار الرئيسية للبنائية في العلاقات الدولية

1/- رفض المادية وأهمية الأفكار: لا تُحدّد بنية النظام الدولي بتوزيع القدرات المادية (القوة العسكرية، الثروة) فحسب، بل بتوزيع الأفكار والمعتقدات المشتركة في المقام الأول. فالبنى ظواهر تاذاتانية intersubjectifs. المرجع: ألكسندر ويندت، النظرية الاجتماعية للسياسة الدولية (1999). في الصفحة 1. يستهل ويندت كتابه الرائد بهذه العبارة الشهيرة: "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها". ثم يوضح أن "بنى التواضع والعداء هي بُنى هويات ومصالح، وليست بُنى مفروضة خارجياً من الطبيعة البشرية أو النظام الفوضوي" (ص 21). وتعتمد طبيعة النظام على الأفكار التي يتشاركها الفاعلون عن أنفسهم وعن الآخرين.

2/- قوة المعايير والهويات: تلعب المعايير (التوقعات السلوكية المشتركة) والهويات (الفهم الذاتي في علاقته بالآخرين) دوراً سببياً حاسماً. فهي تُحدّد مصالح الفاعلين وتوجّه أفعالهم. وتُبنى الهويات اجتماعياً من خلال التفاعل l'interaction. المرجع: بيتر ج. كاتزنستين (محرر)، ثقافة الأمن القومي: المعايير والهوية في السياسة العالمية Peter J. Katzenstein (dir.), The Culture of National Security: Norms and Identity in World Politics (1996) ملاحظة: في المقدمة، يكتب كاتزنستين: "قد تكتسب المعايير أهمية تكوينية une importance constitutive من خلال خلق أشكال جديدة من العمل السياسي، أو أهمية تنظيمية من خلال وضع معايير للعمل السياسي المناسب" (ص 5). تُبين المساهمات في هذا الكتاب كيف تُشكّل معايير مناهضة الفصل العنصري ومناهضة الانتشار النووي، فضلاً عن الهويات "السلمية" (اليابان، ألمانيا ما بعد الحرب)، السياسة الأمنية.

3/- البناء الاجتماعي للدولة ومصالحها: الدولة ومصالحها ليستا نتاجاً للفوضى، بل هما نتاج عمليات تاريخية وثقافية واجتماعية. يدرس البنائيون كيف تصبح ممارسات معينة (كالسيادة والدبلوماسية وحقوق الإنسان) "طبيعية naturelles"، وكيف تتطور مصالح الدولة. المرجع: مارثا فينيمور، المصالح الوطنية في المجتمع الدولي Martha Finnemore, National Interests in International Society (1996). ملاحظة: في الصفحة 2، تطرح فينيمور سؤالها المحوري: "كيف تتعرف الدول على مصالحها؟" وتجادل بأن المصالح "تتشكل بفعل بيئات معيارية واجتماعية مشتركة" (ص 15). ومن خلال أمثلة مثل تبني الدول لسياسات علمية عالمية، أو إنشاء هيئات حقوق الإنسان على مستوى الدولة، تُبين أن المنظمات الدولية والمجتمعات المعرفية "تُعلم" الدول تفضيلاتها.

4/- التغيير كظاهرة مركزية: على عكس الواقعية الجديدة، التي تنظر إلى النظام على أنه ثابت/جامد، تُقدّم البنائية أدوات لتفسير التغيرات العميقة في العلاقات الدولية. فتحوّل الهويات، وانتشار المعايير الجديدة، وتطور البنى الاجتماعية، كلها عوامل تفسّر التحولات التاريخية (مثل نهاية الحرب الباردة، وظهور مناهضة التدخين كمعيار عالمي). المرجع: ألكسندر ويندت، "النظرية الاجتماعية للسياسة الدولية (1999) (Alexander Wendt, Social Theory of International Politics)، وأعماله حول "حياة المعايير". ملاحظة: خصّص ويندت فصلاً كاملاً لـ "التغيير في السياسة الدولية" (الفصل 7). وفيه، يُنظر لـ "تحولات الثقافة" (ص 313 - 336) التي من خلالها تنتقل بنى الهوية من العداء (الثقافة الهوبزية culture hobbesienne) إلى التنافس (الثقافة اللوكية culture lockéenne) وحتى إلى الصداقة (الثقافة الكانتية culture kantienne). وتتغذى هذه الديناميكية من التفاعل والتشئة الاجتماعية والتعلم.

5/- الفاعلية/الفاعل والبنية: "التكوين المشترك Mutual Constitution/ Co-Constitution": تسعى البنائية إلى تجاوز تعارض ثنائية الفاعل (الدولة، الدبلوماسية) والبنية (الفوضى، النظام السياسي). فهما يتشكلان/يتكوّنان بشكل متبادل: إذ تُعيد ممارسات الفاعلين إنتاج البنى أو تغييرها، بينما تُوفر هذه البنى سياق المعنى الذي يجعل الفعل ممكناً ومفهوماً. المرجع: ألكسندر ويندت، النظرية الاجتماعية للسياسة الدولية (1999). ملاحظة: في الصفحات 22 - 33، يُطوّر ويندت مفهوم "البناء أو التكوين المشترك Co-Constitution" (التكوين المتبادل). ويستند إلى نظرية التكوين البنوي la théorie de la structuration لأنثوني جيدنز Anthony Giddens ليؤكد أن "البنى ليست قوى سببية مستقلة عن الفاعلين، بل توجد فقط من خلال ممارساتهم" (ص 185)، في حين أن الفاعلين أنفسهم يتشكلون من خلال هذه البنى الاجتماعية.

جدلية الفاعل والبنية في أعمال ألكسندر ويندت: تحليل أكاديمي

في كتابه الرائد "النظرية الاجتماعية للسياسة الدولية" (1999)، يقدم ألكسندر ويندت حلاً متطوراً لـ "مشكلة الفاعل والبنية" (أو مشكلة العلاقة بين الجزئي والكلي)، وهو نقاش محوري في النظرية الاجتماعية. يهدف منهجه، المتجذر صراحةً في "نظرية التكوين" لأنثوني جيدنز والمتأثر بالظاهراتية والتفاعلية الرمزية، إلى تجاوز الأنطولوجيات أحادية الجانب للفردية المنهجية (التي تُعطي الأولوية للفاعل) والشمولية البنوية (التي تُعطي الأولوية للبنية).

1. الأسس النظرية: رفض الثنائية وتبني "الازدواجية" Rejet du Dualisme et Adoption de la Dualité

Dualité : يرفض ويندت "الثنائية" التي تُعامل الفاعل والبنية كقوتين مستقلتين ومتضادتين. يفضل مفهوم "الازدواجية"، المستمد من جيدنز، والذي بموجبه يُمثل الفاعل والبنية وجهين لظاهرة اجتماعية واحدة، يُشكّل/يُكوّن كل منهما الآخر، ولا يُمكن اختزاله إلى أحدهما. مرجع وتوضيح: "النظرية الاجتماعية للسياسة الدولية"، الصفحات 22-33، الفصل الثاني: "الواقعية العلمية والأنواع الاجتماعية Scientific Realism and Social Kinds". يضع ويندت الأسس الفلسفية لمنهجه هناك، استناداً إلى "الواقعية العلمية". ويؤكد أن البنى الاجتماعية موجودة موضوعياً، لكن وجودها يعتمد على معتقدات وممارسات الفاعلين. يكتب: "البنى ليست قوى

سببية مستقلة عن الفاعلين، بل توجد فقط من خلال ممارساتهم" (ص 185). ومع ذلك، فإن هذه الممارسات نفسها مؤطرة ببنى المعنى.

2. آلية "البناء المشترك" (التكوين المتبادل) Mutual Constitution: يكمن جوهر حجة ويندت في آلية "التكوين المتبادل":

أ. **"البنية تُشكّل الفاعلين (الهويات والمصالح)":** لا تُعدّ البنية الدولية توزيعاً للقوة المادية، بل "توزيعاً للمعرفة" (ص 139-140). وهي تتألف من "بنى الفهم المشترك" (الثقافات، والمعايير، والمؤسسات) التي تُسند "أدواراً" (عدو، منافس، صديق) للفاعلين. ومن خلال تبني هذه الأدوار، تُرسخ الدول "هوياتها" (فهم ذاتي مستقر عبر الزمن) والتي بدورها تُحدد "مصالحتها". فالدولة التي تُدرك نفسها على أنها "دولة ذات سيادة حديثة" سيكون لها مصالح مختلفة (الاعتراف، عدم التدخل) عن مصالح الإمبراطورية ما قبل الحديثة.

ب. **"الفاعلون يُعيدون إنتاج البنية من خلال الممارسة":** لا توجد البنى خارج الممارسات اليومية للفاعلين. إن السيادة، على سبيل المثال، ليست كياناً مادياً، بل هي مؤسسة مستمرة يجب ممارستها والاعتراف بها من خلال الممارسات (الدبلوماسية، واحترام الحدود، والمعاهدات). فكل تفاعل دبلوماسي، وكل معاملة تجارية تتوافق مع قواعد السوق العالمية، تعيد إنتاج بنية النظام الدولي الليبرالي. في المقابل، يمكن للممارسات الجديدة والمتكررة (مثل التدخل الإنساني في التسعينيات) أن تُغير هذه البنية على المدى البعيد، وذلك بتغيير المفاهيم المشتركة لما هو مشروع.

3. الرسم التوضيحي المركزي: ثقافات الفوضى الثلاث: يُجسد ويندت هذه الجدلية في نموذجها الشهير لثقافات الفوضى الثلاث، المستمد من أنواع الفعل الاجتماعي عند ويندت (المستوحاة من فيبر وهابرماس):

أ. **ثقافة هوبزية (الفوضى كحالة حرب Culture Hobbesienne. Anarchie comme état de guerre):** يتم تحديد البنية بدور "العدو". وتتجه الممارسات نحو العنف. وتتضارب الهويات. هذه البنية تُشكّلها دولاً ذات مصالح توسعية ودفاعية، والتي، من خلال ممارساتها السياسية الواقعية Realpolitik، تعيد إنتاج هذه الثقافة نفسها.

ب. **الثقافة اللوكية (الفوضى كتنافس Culture Lockéenne. Anarchie comme rivalité):** تتميز هذه البنية بدور "المنافس". السيادة معترف بها بشكل متبادل، والعنف محدود. هذه البنية تُشكّلها دولاً ذات مصالح تملّكية وتنافسية، تحافظ ممارساتها (توازن القوى، الدبلوماسية) على الوضع الراهن التنافسي.

ج. **الثقافة الكانطية (الفوضى كمجتمع أصدقاء Culture Kantienne. Anarchie comme communauté d'amis):** تتميز هذه البنية بدور "الصديق". الممارسات سلمية وقائمة على المساعدة المتبادلة. هذه البنية تُشكّلها دولاً ذات مصالح جماعية وإيثارية (مثل الاتحاد الأوروبي)، تُعزز ممارساتها (التعاون المتكامل، حل النزاعات سلمياً) المجتمع.

المرجع والتوضيح: "النظرية الاجتماعية للسياسة الدولية"، الفصل 6: "ثلاث ثقافات للفوضى"، الصفحات 246-312. يوضح ويندت قائلاً: "لا منطق متأصل في الفوضى؛ فقد تُنتج معضلة أمنية أو

أمنًا جماعيًا، وذلك تبعًا للديناميكيات التفاعلية التي تُشكّلها" (ص 249). ويحدث الانتقال من ثقافة إلى أخرى من خلال "التعلم" و"التفاعل" و"التنشئة الاجتماعية"، وهي عمليات أو مسارات.

4. آليات بناء الفوضى وإعادة إنتاجها: الفوضى ليست حقيقة مطلقة، بل هي نتاج عمليات/مسارات اجتماعية ملموسة، وتستمر من خلالها:

أ. **التنشئة الاجتماعية واستيعاب المعايير Internalisation des Normes:** تتم تنشئة الدول الجديدة (أو الدول الثورية) وفقًا لـ "قواعد اللعبة" الفوضوية، وهي قبل كل شيء معايير اجتماعية. **للمزيد من التوضيح:** مارثا فينيمور، المصالح الوطنية في المجتمع الدولي، مطبعة جامعة كورنيل، Martha Finnemore, National Interests in International Society, Cornell University Press, 1996. الصفحات 22 - 23: توضح فينيمور كيف تُعلم المنظمات الدولية (اليونسكو، البنك الدولي) الدول مصالحها والممارسات الملائمة للدولة الحديثة (إنشاء وزارة للعلوم، حماية حقوق الإنسان). وهكذا، تُعاد إنتاج الفوضى اللوكية من خلال غرس معاييرها التأسيسية/التكوينية **normes constitutives**.

ب. **دور الممارسات والأداءات:** السيادة، وهي ركيزة النظام الفوضوي، ليست حقيقة مادية، بل هي ادعاء يُمارس ويُعترف به باستمرار (الدبلوماسية، والمعاهدات، ومراقبة الحدود). **المرجع والتوضيح:** كريستيان ريوس-سميث، "الغاية الأخلاقية للدولة"، مطبعة جامعة برينستون، Christian Reus-Smit, The Moral Purpose of the State, Princeton University Press, 1999. الصفحات 30 - 35: يحلّل ريوس-سميث كيف تختلف "البنى التأسيسية/التكوينية الأساسية" (مثل فكرة "الغاية الأخلاقية" المشروعة للدولة) تاريخيًا، وكيف تُشكل الملامح الخاصة التي تتخذها الفوضى (على سبيل المثال، السيادة الشخصية للأمرء في العصر الحديث، مقابل السيادة الوطنية اليوم).

ج. **البُعد المؤسسي والدستوري:** أصرّ هيدلي بول، أحد الرواد، على أن النظام الفوضوي ("المجتمع الفوضوي") يُحافظ عليه من خلال مؤسسات مثل الدبلوماسية، والقانون الدولي، وتوازن القوى، والحرب. **المرجع والتوضيح:** هيدلي بول، "المجتمع الفوضوي: دراسة للنظام في السياسة العالمية"، ماكملان، 1977 (الطبعة الثالثة، 2002). Hedley Bull, The Anarchical Society: A Study of Order in World Politics, Macmillan, 1977 (3ème ed. 2002). الصفحة 71: يُعرّف بول النظام الدولي لا كنظام هرمي، بل كـ "نمط من النشاط يدعم الأهداف الأساسية أو الرئيسية أو العالمية لمجتمع الدول". وبالتالي، يمكن للفوضى أن تُؤوي "مجتمعًا" مُزوّدًا بقواعد ومؤسسات.

المراجع المعتمدة:

- **Wendt, Alexander** (1992). "Anarchy is what states make of it: the social construction of power politics", *International Organization*, 46(2), 391-425. (Article fondateur).
- **Wendt, Alexander** (1999). *Social Theory of International Politics*. Cambridge University Press.
- **Katzenstein, Peter J.** (dir.) (1996). *The Culture of National Security: Norms and Identity in World Politics*. Columbia University Press.
- **Finnemore, Martha** (1996). *National Interests in International Society*. Cornell University Press.

- **Onuf, Nicholas Greenwood** (1989). *World of Our Making: Rules and Rule in Social Theory and International Relations*. University of South Carolina Press.